تتمة ـ النبوة : اصطفاء وقدوة

لقد كان لكل من هؤلاء الابطال عالم مستقل ، منفصل عن حاضرهم متصل بعالم الرسول والصحابة · حققوه باخلاصهم وانقطاعهم الى الله ·

٢ـ الحب :

والاقتراب كما أوضحنا عملية نفسية خالصة لا بد فى استمرارها من قوة فى القلب ذات ديمومةوتوهج وهذه القوة هى الحب : حب الله والرسول حبا يغمر سائر العواطف والنزعات ويتألق صدقا ونقاء · وهو حجر الاساس فى الايمان ، قال عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن من أحدكم حتى أكون احب اليه من ولده ، ووالده ،والناس أجمعين »(١) !

ذلك أن حب الرسول هو حب لنعقيدة التى أمر بنشرها فى الارض وقد قال تعالى «قل : ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » (٢)

ان حب العقيدة فى الاسلام فوق حب النفس والحياة ·

٣ـ العقيدة فوق الثروة والمال :

فلا غرو أن يجعل الله العقيدة فوق المادة والدعوة فوق المال ·

ان الثروة والموارد الاقتصادية لا بد منها فى الانشاء والتعمير اللذين هما ثمرة من ثمار العقيدة · ولكن الله يريد أن يهيمن الدين على القوى المادية وان يسخرها فيما ينفع الناس ويأبى ان يعلو الشغف بالثروة على حب الله والرسول · ويغضب ان يتخذ الدين مطية استغلال يصرفه أصحاب المصالح الخاصة فيما يعود عليهم بنفع شخصى · ولعل هذا يفسر لنا حكمة الله فى اختيار الانبياء والقادةمن غيرذوى الثروات الذين يرفعون المصلحة الخاصةعلى العقيدة،والمصلحة العامة وينفصلون عن الامة فى قضيتها الكبرى ·ولهذا قال نبى بنى اسرائيل لاغنيائهم : « هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا » وكان منهم ما توقعه ، اذ اعترضوا على ملكية طالوت ولم يعرهم الله اهتمامه ،فنصر عبده طالوت من غير مدد فيهم ومن غير ثرواتهم · وان بعضهم ليحارب النبى المختار حفاظا على مصلحته أو مصلحة عشيرته وهل يفسر موقف أبى سفيان قبل الفتح ، وموقف ابى جهل بغير هذا ؟

والاسلام لا يحرم الغنى ولا يزهد فيه ولكن يجعله فى خدمة العقيدة ، وقد رضى الله الغنى لبعض انبيائه

١ـ رواه مسلم والبخارى والامام احمد فى مسنده · والنسائى وابن ماجه ·

٢ـ ال عمران : ٣١ ١ـ البقرة : ٢٣٦

والملوك الصالحين عندما جعل نفوسهم فوق المال ، فخلت قلوبهم من محبة الثروة ، وسمت على المادة فجعلوا العقيدة فوقها وكانت عندهم للدين خادما وتبيعا • هذا نبى الله سليمان سأل ربه ملكا لا ينبغي لاحد من بعده، فأعطاه العجب العجاب ، وفجر الكنوز بين يديه واستخرجت له الثروات من جوف الارض ، ومن قاع البحار ، فكانت عنده كلها خارج قلبه ، ولم يشغله الا بحب الله وكلمة التوحيد• ولم تستطيع هذه الاموال الخلابة أن تظفر من قلبه بشيء ، وكان هذا ابتلاء لسليمان أيما ابتلاء • وظهر هذا جليا في موقفين من مواقفه : الاول اذجاءه وفد بلقيس بهدية ثمينة ، ظنا منها أن سليمان ملك كسائر الملوك ، يرضى المال طموحه فكان جوابه •• « أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما أتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون» (١) ولو كان سليمان جماعا شرها لارتضى بها ، فان من تسلط عليه حب المال لا يشبعه الا التراب • والموقف الثاني: اذ لام نفسه على انشغاله باستعراض خيل الجهاد ، حتى توارت الشمس بالحجاب او فاتته الصلاة ، فأدب نفسه ايما تأديب : أكب بنفسه على سوق الخيل واعناقها وكان قد أجهدها الجرى والسباق ونضحت بالعرق فطفق يمسحه عنها ، يفعل ذلك وهو الملك بين يديه الانس والجن تخدمه، قهرا لنفسه التى استمتعت بالخير برهة فنسيت ذكر ربها ، واذلالا لها وتأديبا •

ـ وتتجلى هذه الظاهرة ايضا فى موقف الفاتح الصالح ذى القرنين ، اذ عرض عليه أهل ما بين السدين مالا عظيما ، يؤدونه سنويا له ، ليبنى لهم سدا يحميهم من غارات يأجوج ومأجوج • فرفض العرض ودعاهم الى الاعتماد على انفسهم ومساعدته بالرجال والمعادن لينفعهم بخبرته ويقيم لهم ردما خيرا من السد « قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما » (٢) •

لقد كان سليمان وذو القرنين عليهما السلام أغنى أهل الارض فى يومهم وكان المال لا يدخل فى حسابهما فى شيء الا بما ينفع عباد الله وبما يرضى الله • واختار الله محمدا (ص) نبيا لانشب عنده ولا متاع وقال الاثرياء من العرب ، « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين

١ـ النمل ـ ٢٦

٢ـ الكهف : ٩٥

عظيم » (١) ولما رأوا الدعوة تنتشر انتشار البرق علموا ان ليس معدن العظمة المال ، وان العظمة الحقيقية فى القيم الربانية وفى الشرع الالهى الذى يستقر فى القلب ويجرى عملا صالحا.

وقد تدفقت الاموال على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يعلق بقلبه شىء منها ولا تزود بغير زاد سنة • نهض مرة بعد التسليم من صلاته مسرعا فتخطى رقاب الناس الى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته ، فخرج عليهم ، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته ، قال : ذكرت شيئا من تبر عندنا فكرهت ان يحبسنى فأمرت بقسمته » (١)

ورأت أمهات المؤمنين الاموال تحمل الى رسول الله (ص) فتاقت نفوسهم الى التوسعة ورغبن فيها الا رسول الله (ص) وأبى الرسول الا أن يكون هو وبيته مثلا فى الرضا بالكفاية ، وجاءهن من الله التخيير : اما الصبر على رسول الله على ما أراد الله له من تقديم الاخرة على الدنيا واما التسريح والتمتيع ،فاخترن الله والرسول •

ومن ثم كانت دعوة الانبياء خالصة لله لم يبتغوا بها منفعة لانفسهم أو جزاء دنيويا • وما من رسول الا قال لقومه •« وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين»(٢)

٤ـ الصبر والثبات والبطولة :

وان تأنس بالرسل ، فلتأنس بما كانوا عليه من صبر وثبات واقدام •

رجل أعزل ، نازل وحده أمة ، حتى انقادت له على الاسلام • فبأى سلاح فرق النبى صفوف الخصوم الالداء ؟ انه الصبر والثبات • وانى لاحسبه أمضى سلاح فى دك أسوار الجاهلية والوثنية •

كانت معركة الرسول صلى الله عليه وسلم بين فئتين غير متكافئتين كما • واذ قضت حكمة الله أن ينازل الرسول وحده قوة مناوئة ذات عدد ، فلا بد من الصمود فى وجهها صمودا باسلا يكشف عن ثبات الحقيقة التى يدعو اليها ، ويفضح زيف العقائد التى يتشبث بها الجاهليون • وما من نبى الا جعل الله فى عزيمته من الثبات ما تزول منه الجبال وما يزول : موقف راسخ ، ملؤه الحزم والتصميم والاقدام ، يريد ان يفتح قلوبا مغلقة ، وان ينفذ الى ضمائر مظلمة ، وفى نفسه قوة لا تقهر ، وارادة لا تنثنى ، اذ آمن أن الله معه • هذا التحدى نجده فى انذار هود قومه « قال : انى اشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون ، من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون • انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو اخذ بناصيتها ، ان ربى على صراط مستقيم » (٣) •

١ـ رواه البخارى • انظر رياض الصالحين ص ٥٧

٢ـ الشعراء : ١٠٩

٣ـ هود : ٥٦

فالصبر اذا ميدان التجربة ، وهو الكاشف الحقيقى للافكار المتصارعة ، وفائدتها الكبرى هو هذا الالتحام والنزال بين العقيدتين ، وكان من الهين على الرسول ان ينسحب بالفكرة ، والرسالة الى أرض ، لا يلقى فيها مقاومة ، ولكنه عندئذ لا يربح المعركة ، وما يكون كسب المعركة الا باللقاء • ولهذا أمر محمد صلى الله عليه وسلم بنوع خاص من الصبر ، هو الصبر الجميل •
وهذا الصبر : جميل فى اسلوبه ، وفى عواقبه اتصال بالمناوئين وهجوم على قلوبهم بالعقيدة ، ومجابهتهم بالحق ، بما لدى الرسول من الحكمة والموعظة الحسنة • حتى اذا طاشت أحلامهم وثاروا به ثبت لهم ولم يتراجع ، حتى يرهبهم صبره، وتهزمهم عقيدته •ولا ابلغ من تصوير هذا الواقع من انهزام الكفار انهزام عقيدة ونفس من قوله تعالى فيهم « فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » (١) •

ومن ثم تبدو مواقف النبى صلى الله عليه وسلم خارجة عن طاقة أى انسان ، ولو كان ايدا شديدا ولعل هذه البطولة هى التى تكسبه الانصار بل تنتزع الرجال من صفوف الخصوم الى صفوف الانصار ، تأخذهم روعة الموقف البطولى ، فيعبرون البرزخ الى معسكر النبى صلى الله عليه وسلم • ألم يعبر عمر وخالد وغيرهما ، هذا البرزخ جهارا • !

ان هذه المواقف الخالدة فى عالم البطولة فرضت احترام النبى على الاعداء ، فقال فيه أحد معارضيه «هو القرم الذى لا يقدع أنفه » (٢)، وهى التى بعثت الاعجاب فى عمه أبى طالب وعشيرته ، فاحتملوا من أجله ما احتملوا •

ولكنى ــ معذرة : اذ أطلقت اسم البطولة على صبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم اظفر بكلمة أبلغ فى الدلالة منها • فان بطولة محمد والانبياء عليهم السلام ، ليست كبطولة الرجال المتازين الاقوياء • ليست كبطولة القياصرة• والاباطرة، وقادة الجيوش من قيصر روما ونابليون الى مونتغمرى وروميل وغيرهم • فان أمثال هؤلاء كانوا ابطالا لانفسهم • صفق لهم الناس لحظات ، فلما زالوا أو سقطوا لم يبق منهم الا أشباح باهتة ، ولم يبق من بطولاتهم الا ذكرى كالصدى الضائع فى مجاهيل الارض • أما محمد صلى الله عليه

١ــ المدثر : ٥٠

٢ــ ينسب هذا القول لابى سفيان قبل اسلامه وينسبه بعضهم لورقة بن نوفل وكان من المشجعين للرسول « انظر لسان العرب ق•ع »

وسلم فلم يكن بطلا لنفسه ، وانما لخير الانسانية وهداهـا • فما فى بطولة صلف ، ولا كبرياء•ولا طغيان ولا تمجيد لذاته بل كانت بطولته العدالة ، والحق والانصاف والتقوى • ولذلك ما زالت مواقف صبره وجهاده، تفيض من القيم الانسانية البطولية ، ولم تستطع العصور ، ولن تستطيع ان تفقدهما من جدارتها شيئا •

وخير من كلمة البطولة اسم النبوة: فالنبوة فوق البطولة ، وما بينهما ، كما بين الارض والسماء ، ولامر ما لقبه أحد كتاب الغرب « بطل الابطال » (١) •

٥ـ المسؤولية والعهد :

كان استبسال الرسل فى نشر الدعوة ، والتمكين ، وفاء منهم بعهد الله • ذلك لانهم قد واثقوا الله على الاخلاص له ومنح حياتهم كلها للرسالة قال تعالى :(واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم واخذنا منهم ميثاقا غليظا » •

وعلى هذا لم يعرفوا لوجودهم معنى ولا غاية غير انفاذ كلمة الله على أتم وجه وأصدق اداء وهذه المسؤولية فى الحفاظ على الدين والاستمساك به ونشره فى الارض ، تنتقل الى المؤمنين من بعدهم قال تعالى بعد تلك الاية : « ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا اليما » •

والمؤمنون الصادقون لا يدخرون جهدا فى اتباع الطريقة المثلى لاعلاء كلمة الله ، والوفاء بعهده حتى يغدو الدين المأثورة الخالدة والمطلب الاثنى لهم ، به يحيون ومن أجله يحيون • فأى تضييع لجانب منه خسارة لا تعوض • فيكون الجهد الايجابى البناء فى حياة الامة ان يحتفظوا بالدين صافيا خالصا لا ينفصلون عنه فى صغيرة أو كبيرة من شؤون دنياهم أو اخرتهم حتى لا يرتدوا الى النقصان وفى النقصان الانحطاط والخسران •

ان العقيدة الاسلامية تبعث فى نفوس اتباعها تساميا رائعا يدركون به معنى انسانيتهم وتكاملها الصاعد فى سبيل الله • لذلك كان أشد ما يخشاه الانبياء هو الابتعاد او التراجع أو انتهاء الحياة على غير شريعة الله ، فتكون فى ذلك مأساة الانسان الحقيقية ، مأساة ضلاله وضياعه وخسرانه فى دار الابتلاء فكانت وصية ابراهيم لابنائه ان يستمسكوا بالدين حتى الرمق الاخير

١ـ هو توماس كارليل مؤلف كتاب الابطال

قال تعالى : « ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الاوأنتم مسلمون» (١)

لقد تمت نعمة الله على الانسان بالاسلام ، به يعرف غاية وجوده وسبيله الى الفوز والكمال ، فان أنف منه واستعلى على نعمة الله أضاع حقيقته وخسر نفسه قال تعالى: « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه » (٢)

وكان مما يقلق بال رسول الله (ص) أن ينحدر المسلمون فى سلم القيم الربانية التى بلغوها بالاسلام فكان يقول : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » (٣) ٠

وربما كان مصدر هذا القلق ما علمه الرسول من أن المؤمنين فى موقف دقيق ، يتطلب منهم أن يقيموا التوازن العادل بين تعاليم الله ورغبات النفوس ، فان أى ترجيح للاهواء ينتهى الى تغلب قيم الارض على قيم السماء فكان عليه الصلاة والسلام ينبه الى الاعراض الخطيرة التى تنشأ من ذلك فى حياة المسلمين فقال : « ما نقض قوم عهد الله ورسوله الا تسلط عليهم عدو من غيرهم ، يأخذ بعض ما كان فى أيديهم وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله ، وتجبروا فيما أنزل الله الاجعل الله بأسهم بينهم » (٤) ولا يعوزنا الدليل فى حياتنا الحاضرة على صدق الخبر ٠

فلم كتب علينا أن نقاسى سريعا مما صنعته ايدينا ، وجلبناه على أنفسنا ؟ ألسنا بمسلمين ، ألسنا أحق الناس برحمة الله ورأفته ؟

بلى ، ولكن الله قال : « ان رحمة الله قريب من المحسنين » (٥) وان الله قد وعد هؤلاء رفيع المنزلة ، وسنى الجوائز وعالى المقامات وعظيم الثواب ، ولكن ليس وعدا جزافا ، ان هو الا جزاء الواجبات العظيمة والمهمات الشاقة التى كلف بها المؤمنين ٠

اننا نجد فى شرع الله كله أن

١- البقرة : ١٣٢ ٢- البقرة : ١٣٠

٣- رواه احمد فى مسنده ومسلم والبخارى والنسائى وابن ماجه

٤- فى حديث رواه ابن هشام فى السيرة (م٢ص ٦٣١) عن عبد الله بن عمر ٠ ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ مختلف وقال حديث صحيح ٠ وهو خمس بخمس ٠ ما نقض قوم العهد الا سلط عليهم عدوهم ٠ وما حكموا بغير ما أنزل الله الا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت الفاحشة الا فشا فيهم الموت ولا طففوا المكيال الا منعوا النبات واخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة الا حبس عنهم القطر ٠

٥- الاعراف : ٥٦

هؤلاء الذين حباهم ربهم بالفضل العظيم والمسؤولية الكبرى فيموقف بالغ الدقة والحساسية ، ان احسنوا فازوا بأجرين ، وان أساؤوا عوقبوا ضعفين ، قال تعالى :

« يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلكعلى الله يسيرا • ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا كريما »(١) •

ذلك أن الله يجعل الثواب والعقاب ، مكافئا لاحوال المكلف ، ومقدار التكليف ، والاحسان أو الاساءة فيه •

الا ترى ان فرعون « يقدم قومه يوم القيامة »(٢) لانه المسؤول عن استخفافه قومه ، وايرادهمالنار ! وان امرأة فرعون بنى الله لها قصرا فى الجنة ، اذ استطاعت ان تنجو بقلبها من الوسط الكافر • وهو أمر لا بد فيه من الجهد والعناء ، ومكافحة الموانع والحوائل مكافحة مريرة ، فى سبيل استنقاذ النفس من براثن الكفر الحاكم ؟

لقد استبان الامر ، اذ حصحص الحق ، اننا عهد الينا بالقوامة على الناس والشهادة عليهم فى اتباع شرع الله ، قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٣) •

لقد كرمنا الله بمسؤولية الشهادة على الناس ، ما حكمنا بشريعة الله والرسول •

فبذلك نكون من المحسنين ، ومن رحمة الله قريبين • وأجرنا باذن الله ــ أجران : اجر الاسلام وأجر القيام على الناس بالاسلام •

فان أبينا الكرامة ، وتخلينا عن الواجب ، وقع علينا ما أنذرنا الله به ورسوله ، نالتنا عقوبة الله مضاعفة ، وخسرنا خسرانا كبيرا ، خسرنا أنفسنا وخسرنا حق الشهادة على الناس ، فلم يعترف لنا به الامم ،بل صرنا موطىء اقدامهم •وقصعةأكلهم• وموضع المهانة والاذلال • ان اصطفاء الامة الاسلامية لرسالة الله ، تضعها فى هذا الموقف الدقيق الحساس ، وتجعل منها أمة نسيج وحدها : أمة من شجرة مباركة ، لا شرقية ولاغربية تولى وجهها شطر المسجد الحرام ، فلا تدور فى فلك أحد ، بل تدور

١ــ الاحزاب : ٣١

٢ــ هود : ٩٨

٣ــ البقرة : ١٤٣

فى فلكها الامم ، لانهـــا منحت دور الشهيد فى تنفيذ شرع الله • والقائم بهذه المهمة لا يستوحى من غيره ، ولا يقبل خضوعا ولا تبعية ، ولا تتم له الرسالة الا بالاستقلال عن المؤثرات الغريبة ، وبامتلاك قوة التأثـــــير والتوجيــــه •

خاتمـــة :

وهكذا يتحقق الاقتداء بالاخذ من عالم الاصطفاء ، والتأثر بالمصطفـين الاخيار ، تأثرا يتفاوت عمقا بتفاوت استعداد المتأثرين ،واخلاصهـــــم ، وحرصهم على التمثـــل والانفصال ، والضرب من المثل المصطفى ، ثم تجرى عملية التمثل الذاتى والتربيــــة الوجدانية ، يأخذ المؤمن بها نفسه • فاذا انتقلت اليه الصفات والاخـلاق، وصارت فى سلوكه وافعالـه ، ظهر أثرها فى المجتمع وانتفعوا بهـــا ، واصطبغت بها أعمال الامــــة ، اذا كثر المعتقدون ، وغلبوا على الخبث • وبهذا ترتقى الامة ، وتبدأ عصــــرا جديدا ، ومدنية جديدة ، أركانهـــا الاخلاق والمبادىء الالهية التى لا تحد من نشاط الانسان ، ولا تضيق عليه المجال ، بل تفتح ملكاته ،وامكانياته، على ما فى هذا الوجود من الاسرار ، والعجائب ، ليزداد يقينا على يقين • وتقدما على تقدم ، وكمالا على كمال •

لا هزيمة فى الاسلام

عن على رضى الله عنه قال : لمــــا انجلى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد نظرت فى القتلى فلم أر رسول الله فقلت :

والله ما كان ليفر ومـــا أراه فى القتلى ولكن أرى الله غضب علينـــا بما صنعنا فرفع نبيه فمالى خير من أن أقاتل حتى أقتل • فكسرت جفن سيفى ثم حملت على القوم فأفرجـوا لى فاذا أنا برسول الله صــــلى الله عليه وسلم بينهم •